



تحفل موقع التواصل الاجتماعي ومقالات الصحف والمداخلات المتلفزة بعبارات الدعم والتشجيع للشباب المنتفض في العراق، مرفقةً بالخوف على انتفاضته والتحذير من يربدون ركوب موجتها. فثمة من يريد لهذا الحراك أن يستمر، لأن المطلوب إصلاحه هائل: القضاء على الفساد، والمطلوب إنجازه أكثر هولاً: بناء الدولة. لذلك يكتشف الجميع في غمار التعرّف إلى الواقع أن ضرب تنظيم "داعش" قد يكون أكثر يسراً من توفير التيار الكهربائي، وأن الفساد السياسي الذي ساهم في تصنيع الإرهاب لا يقلّ توحشاً عن الفساد المالي الذي لم يحل دون إنهاض الخدمات فحسب بل دمّر معظم قدرات البلاد.

من شأن العراقيين العاديين أن يعولوا على شبابهم الغاضبين في الشارع، لعلهم ينجحون في إطلاق قطار التغيير، وهذا طبيعي رغم أن هذه ليست مهمة الشباب وحدهم، ثم أنه يبدو كرهان على المجازفة. لكن اعتماد الطبقة السياسية عليهم أيضاً يشي بأن علة العلل في العراق تكمن في المسكونت عنه، خوفاً أو استكانةً. وحين اندلعت التظاهرات، في مناطق شيعية، بدا الجميع كأنهم كانوا ينتظرونها: المرجع على السistani يخرج عن صمته، رئيس الوزراء حيدر العبادي يستجيب نداء المرجع ويتخذ إجراءات جريئة، أحزاب "التحالف الوطني" (الشيعي) تغرق في الارتباك وتتزاحم سرّاً وعلناً لاحتضان الشارع رغم علمها بأنه ناقم عليها. وإذا تبيّن أن المتظاهرين في بغداد ليسوا شيعة فقط فقد أقلّلوا زمرة الحكم في "حزب الدعوة" وطمأنها في آن.

أما القلق فلأنهم برهنوا عن نضج وعفوية وحتى عن "وطنية" كامنة، وبالتالي مفاجئة بعد كل الشحن المذهبي الذي بذل والترهيب الذي تمارسه مليشيات الحقد الأسود. وأما الارتياب فهو إلى إمكان استخدام تعدد الألوان في الشارع لتفريقه وتبييد زحمه.

المسكوت عنه في خطاب الطبقة السياسية دفعه الحراك الشعبي إلى الواجهة، سواء في الهاتفات والشعارات أو في الاستهدافات.

إنه إيران، دوراً وسطوةً ونفوذاً وترهيباً وتوزيعاً للأدوار بين اتباعها متواافقين ومتناقضين. فما أن أصبح الفساد عدواً معلناً انكشف "النظام" الذي أشرف طهران على إقامته في بغداد (عاصمة "الامبراطورية"!)، وأوكلت مهمته إلى نوري المالكي الذي لم تعد هناك حاجة إلى إثبات مدى "شعبية" كراهيته في بيته المذهبية. كان الإيرانيون تخلوا عن المالكي مرغمين، لكنهم ما لبثوا أن رتبوا له منصب نائب الرئيس ليبق في الحلقة الرئيسية للحكم فضلاً عن زعامته لـ "الحزب الحاكم" (الدعوة).

وحين ينادي المتظاهرون بإسقاط الفساد، بين استهدافات أخرى مثل "إسقاط الحكومة" أو "إسقاط البرلمان" أو "محاسبة الوزراء الفاسدين"، فإنهم بلغوا عملياً عتبة إسقاط النظام، والنظام هو إيران، وإذا كان فشل فقد فشلت. وهي فشلت فعلاً مثلاً فشل الأميركيون في مساعدة العراقيين على اقامة نظام أفضل من ذاك الذي غزوا العراق لإسقاطه، ولعل "المؤسسة" الوحيدة التي أبقتها إيران من الإرث الأميركي هي "مؤسسة الفساد". فالاحزاب التي دخلت "العملية السياسية" أدركت باكراً أن الطرفين الخارجيين ابتلعاً البلد وليسوا حريصين على بناء دولة، لذلك كانت المنافع الخاصة هي القاعدة الأولى والشرط الأساسي للمشاركة في الحكم.

لا يرى الإيرانيون فشلاً لهم في ما يحصل في العراق بل هو فشل العراقيين أولاً وأخيراً. صحيح أن رجال طهران هم الآن موضع اتهام لكن هذا لا يحملها تبعات فسادهم حتى لو كان جزء منه محققاً لمصالح إيرانية، كتمويل الميليشيات على سبيل المثال.

لكن هؤلاء يعيشون منذ ما قبل 2003 وضعًا غامضاً لا يدرؤن أهم العراقيون أم الإيرانيون، عربُ أم فارسيون، وهل هم في مناصبهم معنيون بدولة مستقلة ذات سيادة أم بـ "مزرعة" تابعة لإيران يتباھي قاسم سليماني أمام الأميركيين وغيرهم بأنه حاكمها. قد يفسّر ذلك جدية الحكم في كل ما هو إيراني وعيشهم حيال كل ما هو وطني، بل يوضح أكثر لماذا انتابت مناقشة الدستور وكتابته لوثة فئوية ومنطقية، مذهبية أو اثنية، إذ تهيأ لـ "المنتصرين" آنذاك أن الأولوية ليست لـ "الوطن" بل لإرضاء جشعهم السلطوي ولم يدرؤوا أن استهتارهم بالتعايش بين المكونات سيؤدي إلى ظهور "داعش" أو ما يشبهه وسيشكّل عندئذ هزيمة للجميع وليس لطائفة بعينها. لم تكن إيران بعيدة عن جريمة المحاصصة "الدستورية" هذه، بل جعلت منها إحدى أدوات هيمنتها.

عندما يهتف المتظاهرون "إيران برّا العراق تبقى حرة" فإنهم يشيرون إلى مكمن الخلل في كل المنظومة التي نشأت على انقضاض النظام السابق. هذا يذكر طبعاً بهتاف "سورية طلعي برّا" في شوارع بيروت قبيل انسحاب قواتها من لبنان، كما أن له معنى واحداً واضحأ وهو أن الكيل طفح وأن صورة إيران في أعماق المجتمع العراقي ليست مطابقة لتلك التي تقنع بها نفسها. الأكيد أن الروابط الدينية والأهلية واحتضان إيران للمعارضين العراقيين خلال منفاه القسري تبقى البعد العاطفي والوجوداني للعلاقة قوياً وثابتاً، لكن أفضال هذا الماضي لا تكفي لتبصير مثالب الحاضر أو الأخطاء المرتكبة في بناء المستقبل.

وليس للإيرانيين أن "ينسحبوا" لأنهم موجودون أولاً من خلال "عراقيتهم"، ولا تشکّل الانتفاضة خطراً على هيمنتهم، إذ أنهم يملكون وسائل القوة والعنف، وكل مسؤول في أي موقع يدين لهم بمنصبه، ولا تستطيع الحكومة إصدار أي قرار استراتيجي داخلياً أو خارجياً ما لم يوافقوا عليه أو يوحوا به مسبقاً. أصبحت ميليشياتهم البديل الجاهز والضروري من الجيش الذي

قد يقال بلا مبالغة أن مردّ حال الفشل إلى "حزب الدعوة" وأيديولوجيته البالية لكن تجريب بدلاته المفترضين قد يقود إلى الندم عليه. فهؤلاء وأولئك خرجن من تحت عباءة الولي الفقيه الذي اختارهم لقيادة عراق ما بعد صدام حسين، وترجعوا في كنف "الحرس الثوري" الذي كان بدوره مليشيا صارت "جيشاً". أي أنهم تلقوا التنشئة الموجهة لجعلهم مشروع استبداد متذكر بالدين. أما الذين استهجنوا تعصّب المالكي وانتقدوا سوء ادارته للعلاقة مع سنة العراق فكان عليهم أن يدركون استنساخه نموذج الإرهاب الإيراني في معاملة سنة الأحواز. ألم يقل الرجل في طهران أخيراً أن "الحشد الشعبي" استفاد من تجربة "الباسيج" (قوات التعبئة للحرس الثوري) سيئة السمعة داخل إيران.

ثم أن نهج المالكي وحزبه في مواجهة الخصوم لا يختلف شكلاً ومضموناً عما ظهر ويظهر في ممارسات حسن نصرالله في لبنان وعبدالملك الحوثي في اليمن وبشار الأسد في سوريا، كما لو أنهم شربوا جميعاً من الإناء نفسه، فضلاً عن أنهم جميعاً يقولون اليوم أنهم يحاربون الإرهاب الذي سعوا بدأب إلى زرعه ليكون ذريعة تسليطهم.

كان العراق يحتاج بعد الغزو والإحتلال الأميركيين إلى "حكم وطني" يضع السلم الأهلي في رأس أولوياته وأهدافه، وكان العراق وال العراقيون يحتاجون خصوصاً بعد الانسحاب الأميركي إلى مباشرة تعاليهم وإطلاق كل أنشطة التنمية المؤجلة منذ أعوام الحصار الدولي. والأكيد أنهم ما كانوا يتطلعون للإنضمام إلى "محور المقاومة والممانعة" الذي شهدوا انجازاته الكارثية في سوريا ولبنان واليمن، لكن إيران شاعت للبلد مصيراً آخر. وإذا كانت الانتفاضة الحالية بثت روحًا جديدة في العراق، بفضل جيل يعتبر أنه عراقياً أولاً وأخيراً ويريد الدفاع عن حقه في العيش بكرامة، فإنه شكل بإرادته أو من دونها تحدياً لوحش الهيمنة الإيرانية وخطراً على مصالح التابعين لها والمتبعين من أفضالها.

ليس المالكي على حق في قوله أن التحقيق في سقوط الموصل "لا قيمة له"، إلا أنه يعكس تقويم طهران لا لواقعه الموصى فحسب بل لكل ما يحصل خارج إرادتها، فهي تعرف أن منطق السلاح والمليشيات هو ما أعطاها نفوذاً في العراق. ربما يتظاهر الإيرانيون وأتباعهم بالتعامل مع مطالب الانتفاضة، غير أن تلبيتها صورياً من دون تنازلات جوهيرية ستكون مجرد عناد في الحفاظ على نظام أثبت فشله بمقدار ما أثبتت ولاده لإيران.